﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۚ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يُلۡقُونَ أَقۡلَٰمَهُمۡ أَيُّهُمۡ يَكۡفُلُ مَرۡيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ ٤٤﴾

[آل عمران: 44]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بعدَ أن ذكرتِ الآياتِ السّابقةِ قصصَ منِ اصطفاهُم اللّه على العالَمين منَ الأنبياءِ وأهلِ الكراماتِ، وجَّه الأنظارَ هنا في هذه الآيةِ إلى عظيمِ شأنِ تلك الأخبار كونُها من غيْبِ اللّه الذي لا يعلمُهُ إلّا هو، فزاد تلك القصصَ العظيمةَ العجيبةَ عَظمةً وهيبةً وشأنًا؛ أنها غيبٌ يُوحيه اللّه تعالى لنبيّه محمد ﷺ فيصفُ المَشاهدَ الدقيقةَ فيها بكلِّ عنايةٍ وعِبْرة[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نُوحِيهِ﴾: من وحَيَ، ويَدُلُّ عَلَى إِلْقَاءِ عِلْمٍ فِي إِخْفَاءٍ أَوْ غَيْرِهِ إِلَى غَيْرِكَ، والوحي: أصلُه الإشارةُ السريعة، ويقال للكتابة: وحي، إذ هي إشارةٌ ما، وقد يكونُ الوحيُ بالإلهام، كما يكونُ بضربٍ منَ الكلام، وعلى ذلك قولُه: ﴿وَإِذۡ أَوۡحَيۡتُ إِلَى ٱلۡحَوَارِيِّـۧنَ أَنۡ ءَامِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي﴾ [المائدة: 111]، وقد يقال ذلك للوساوس نحوَ قولِه: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ﴾ [الأنعام: 121]، والإيحاء: إيقاع المعنى في القلب بطريقة خفية، وكلُّ ما في القرآن من التركيب هو من الوحي بأي من الطرق السابقة، والسياق يوضِّح الطريقةَ المرادة[2].

2) ﴿يَكۡفُلُ﴾: جذرُ الكلمة هو (كَفَلَ): الكَفلُ: ردف العجز، والجمع: أكفالٌ، والكِفْلُ: النّصيبُ، والكِفْلُ منَ الأجر، ومنَ الإثم: الضّعفُ، قال اللّه - ﷻ: ﴿يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ﴾ [الحديد: 28]، و﴿يَكُن لَّهُۥ كِفۡلٌ مِّنۡهَاۖ﴾ [النساء: 85]، ولا يقال: هذا كِفْلُ فلان حتى تكونَ قد هيّأتَ مثلَه لغيره كالنّصيب، فإذا أفردتَ فلا تقل: كِفْل ولا نصيبٌ. والكفيلُ: الضّامنُ للشّيء. كَفَلَ به يكفُلُ به كَفالةً. والكافِلُ: الذي يَكْفُلُ إنسانًا يعولُه ويُنفق عليه. وقولُه عزّ

(1) البقاعيُّ، نظم الدرر: 4/393.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة (وحى)، والراغب، تفسير الرّاغب: 2/88، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل (وحي).

اسمَه: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ [آل عمران: 37]، أي هو كَفَل مريمَ ليُنفقَ عليها، حيث اقترعوا على نفقتِها حين مات أبواها[1]، فبقيتْ بلا كافل، وكِفْلُ الشّيطان: مركبُه، وأكفلتُه إيّاه وكفّلتُه، ﴿فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا﴾ [ص: 23]، ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ [آل عمران: 37]، وهو كفيلٌ بنفسِه وبماله، وكفلَ عنه لغريمه بالمال وتكفّل به، وهو كفل بيّنُ الكفولة: لا يثبتُ على ظهر الدابّة، وهو منَ الأكفال لا منَ الأحلاس[2]. كَفَلْتُ بِالمَالِ وَبِالنَّفْسِ كَفْلًا وَكُفُولًا أَيْضًا وَالِاسْمُ الكَفَالَةُ وكَفَلْتُهُ وَكَفَلْتُ بِهِ، وَعَنْهُ إِذَا تَحَمَّلْتُ بِهِ، قَالَ ابْنُ الأَنْبَارِيِّ: تَكَفَّلْتُ بِالمَالِ التَزَمْتُ بِهِ وَألزَمْتُهُ نَفْسِي[3].

3) ﴿يَخْتَصِمُونَ﴾: جذرُ الكلمة هو (خَصَمَ)، الخَصْم: واحدٌ وجميعٌ، قال الله ﷻ: ﴿*وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾﴾ [ص: 21] فجعلَه جمعًا؛ لأنّه سُمّي بالمصدر. وَفُلَان خصمي الذّكرُ وَالأُنْثَى وَالوَاحدُ، والجميعُ فِيهِ سَوَاء[4]. والخصمُ: المُخاصِمُ والمُخاصَمُ، وهما خصمان، أَي: كلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا خصَمَ صَاحبَه؛ لِأَنَّهُ يخاصمُه، وخَصيمُك: الّذي يُخاصِمكَ، وجمعُه: خُصَماء. والخُصومةُ: الاسمُ منَ التَّخاصُم والاختصام. يقال: اختصم القومُ وتخاصمُوا، وخاصم فلانٌ فلانًا، مُخَاصَمَةً وخِصامًا[5]. والخُصُومَةُ بالضَّمِّ: الجَدَل، وقَالَ الحَرَالِّي: الخِصامُ: القَولُ الَّذِي يُسمِعُ المُصِيخ وَيُولِجُ فِي صِماخِه مَا يَكُفُّه عَن زَعْمِه ودَعْواه[6].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

لَمَّا أتى نبيُّنا ﷺ بهذه الأخبارِ الغريبةِ المحرَّرةِ العجيبةِ التي لا يَعرفُ بعضَها على وجهها إلّا الحُذَّاقُ من علماءِ بني إسرائيلَ، فبيَّن الله بأنَّ الذي قصصناه عليك - أيها الرسول ﷺ - هو من أخبار الغيب التي أوحاها الله إليك؛ إذ لم تكن معهم حين اختلفوا في كفالة مريم أيُّهم أحقُّ بها وأَوْلى، ووقع بينهم الخِصَامُ، فأجْرَوْا القُرْعةَ بإلقاء أقلامهم التي كانوا يكتبون بها التوراةَ - واختاروها تبرُّكًا بها - في نهر الأردنِّ، فأيُّهم لم يَجْرِ قلمُه مع

(1) الخليل، العَيْن: (كفل).
(2) الخليل، العَيْن، الراغب، المُفردَات، والزمخشري، أساس البلاغة: (كفل).
(3) الفيومي، المصباح المُنير: (كفل).
(4) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (خصم).
(5) الخليل، العَيْن: (خصم).
(6) الزَّبيدي، تاج العروس: (خصم).

الماء فله كفالتُها، "أو هي السِّهامُ من النُّشَّاب وهي القِداحُ، أو كانت القِداحُ من نُحاسٍ" فأصابت القُرْعَةُ زكريَّا عليه السلام نبيَّهم وأفضلَهم، ففاز بكفالتِها يحضنُها ويُربِّيها تنافسًا في أمرها لِمَا شرَّفها الله تعالى به[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

سرُّ الإشارةُ بـ ﴿ذَٰلِكَ﴾:

الإشارة بذلك من قبيل الإعجازِ الغَيبيّ في القرآنِ الكريمِ

قولُه: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَۚ﴾؛ الإشارةُ إلى ما تقدّم من قصصِ امرأةِ عمرانَ، وبنتِها مريمَ، وزَكَرِيَّا، ويحيى، والمعنى: أنّ هذه القصصَ وصولُها إليك من جهة الوحي، إذْ لستَ ممّن دارسَ الكُتبَ، ولا صحبَ من يعرفُ ذلك، وهو من قومٍ أمّيين، لا صلةَ لهم بالوحي، فمدركُ ذلك إنما هو الوحيُ من عند الله كما قال في الآيةِ الأخرى، وقد ذكرَ قصّةِ أبْعدِ النّاسِ زمانًا من زمانه ﷺ وهو نوحٌ عليه السلام، واستوْفاها له في سورة هود أكثرَ ممّا استوْفاها في غيرها، فقال: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَاۖ﴾ [هود: 49]، وفي هذا دليلٌ على نبوّةِ رسولِ الله ﷺ إذْ أخبَرَ بغيوبٍ لم يطّلعْ عليها إلّا مَن شاهدها، أو: مَن قرأها في الكُتبِ السّابقةِ، أو: منْ أوحى الله إليه بها. وقد انتفى العيانُ والقراءةُ، فتعيّن الثالث، وهو الوحيُ منَ الله تعالى[2].

ومنَ الإعجاز النّبويّ أنّ تلك القصصَ صحّحتْ كثيرًا من مواضعِ الخطأ ممّا وردَ من أحداثها، وممّا رواه أهلُ الكتاب، فكانت دليلًا قاطعًا على صدقِ الرّسالة.

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/42، والبِقاعِيّ، نظم الدّرَر: 2/79، والآلوسي، روح المعاني: 2/152، ونخبة من العلماء، التفسير الميسَّر، ص: 55.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/149.

دَلالةُ المضارع على التّجدُّد:

فـائـدةُ المضارع اشـتـمـالـه ما تـــقـــدّم مـــنَ القصص، والتي يُوحيها إليه في المستقبل

والكاف في ﴿ذَٰلِكَ﴾، و﴿إِلَيۡكَۖ﴾، خطابٌ للنّبي ﷺ والمعنى: شأنُنا أنّنا نوحي إليك الغيبَ، ونعلمُك به، ولذلك أتى بالمضارع، ويكونُ أكثرَ فائدةً من عَودِه على ﴿ذَٰلِكَ﴾ إذْ يشتملُ ما تقدّم منَ القصص، وغيرِها التي يُوحيها إليه في المستقبل، فتكونُ دَلالتُه واضحةً على التّجدُّدِ والاستمرارِ، ويكونُ إخبارًا بالحالةِ الدائمةِ؛ والمستعمل في هذا المعنى إنّما هو المضارع، وإذ يلزمُ من عَوده على ﴿ذَٰلِكَ﴾ أن يكونَ: نُوحيه، بمعنى: أوحيناه إليك؛ لأنّ الوحيَ به قد وقعَ وانفصلَ، فيكون أبعدَ في المجازِ منه إذا كان شاملًا لهذه القصص وغيرِها ممّا سيأتي.

دَلالةُ ﴿إِذۡ﴾ على ذكْرِ اللّحظةِ الزّمنيةِ في الغيبِ في القصّةِ القرآنيةِ:

(الـزّمَـنُ) عَـامِـلٌ نِـسـبِـيٌّ، وقَـد تُـكـتَـنَـزُ الـحَـيَـاةُ وتُـخْـتَـصَـرُ قِـيمَـتُـها في لحظَةٍ زَمنيَّةٍ تَستَوعِبُ حَدَثًا مِفصَلِيًّا يغيّرُ مجرى الحَيَاة تَمَامًا

قولُه: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يُلۡقُونَ أَقۡلَٰمَهُمۡ أَيُّهُمۡ يَكۡفُلُ مَرۡيَمَ﴾ هذا تقريرٌ وتثبيتٌ أنّ ما عَلِمَهُ من ذلك إنّما هو بِوَحيٍ منَ اللّه تعالى والمُعَلَّمُ به قصّتان: قصّةُ مريمَ، وقصّةُ زَكَرِيَّا؛ فنبّه على قصّة مريمَ، إذ هي المقصودةُ بالإخبار أوّلًا، وإنّما جاءت قصّةُ زَكَرِيَّا على سبيل الاستطرادِ، ولاندراجِ بعضِ قصّةِ زَكَرِيَّا في ذكرِ مَن يكفلُ، فما خَلَتْ من تنبيهٍ على قصّة.

والمضارع بعدَ: ﴿إِذۡ﴾، في معنى الماضي، أي: إذْ ألقَوْا أقلامَهم للاسْتِهام على مريمَ، والظّاهرُ أنها الأقلامُ التي للكتابة. وقيل: كانوا يكتبون بها التّوراةَ، فاختاروها للقُرعة تبرُّكًا بها. وقيل: الأقلامُ هنا الأزلامُ، وهي: القِداحُ، ومعنى الإلقاءِ هنا الرّميُ والطّرحُ، ولم يُذكرْ في الآية ما الذي ألقَوها فيه، ولا كيفيةَ حالِ الإلقاء، كيف خرج قلمُ زَكَرِيَّا. وقد ذكرْنَا فيما سبقَ شيئًا من ذلك عنِ المفسّرين، واللّه أعلَم بالصّحيح منها. وقال أبو مسلمٍ: كانتِ الأممُ يكتبون أسماءَهم

على سهامٍ عند المنازعةِ، فمن خرج له السّهمُ سُلِّم له الأمرُ، وهو شبيهٌ بأمرِ القِداح التي يتقاسمُ بها الجَزور[1].

تقديراتُ الحذْفِ في الآيةِ ﴿أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾:

وارتفعَ ﴿أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ على الابتداءِ والخبرِ، وهوفي موضع نصبٍ، إمّا على الحكاية بقولٍ محذوفٍ، أي: يقولون أيّهم يكفل مريم، وإمّا بعلّة محذوفة أي: ليعلمُوا أيُّهم يكفلُ، وإمّا بحالٍ محذوفةٍ أي: ينظرون أيّهم يكفلُ، ودلّ على المحذوف: يُلقون أقلامَهم، وقد استُدلَّ بهذه الآية على إثباتِ القُرعةِ.

بين طيّاتِ القصّةِ أحداثٌ كثيرةٌ طُوِيَت، لا يعلمُها إلّا الله سبحانه

بلاغة المَجاز والإطناب في الاختِصَامُ:

قولُه: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾؛ أي: بسببِ مريمَ، ويحتملُ أن يكونَ هذا الاختصامُ هو الاقتراعُ نفسُه، وأن يكونَ اختصامًا آخر بعدَه، فيكونَ ﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ إطنابًا في وصف حالِهم، كيف يكونُ في تلك اللّحظاتِ التي تكشفُ عن شدّةِ رغبتِهم، وصدقِ دواخلِهم في كفالة مريمَ.

حالُ اختصامِهم مشهدٌ عظيمٌ، وموقفٌ مدحَهُ القرآنُ الكريمُ

بيانُ الكناية في الاختصامُ:

والمقصودُ من قوله: ﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ شدّةُ رغبتِهم في التكفُّل بشأنها. والعاملُ في: ﴿إِذْ﴾، العاملُ في: ﴿لَدَيْهِمْ﴾، أو ﴿كُنتَ﴾ على قول أبي علي في: ﴿إِذْ يُلْقُونَ﴾، وكرّر جملةَ النّفي ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾ تعجيبًا من حالِهم وشدّةِ رغبتهم في كفالة مريمَ. فيكونُ الاختصامُ كنايةً عن ذلك، فهم يختصمون طلبًا في كفالتِها، فكنّى بالاختصام عن شدّةِ الرّغبةِ.

وجه الكناية شدّةُ رغبتِهم في كفالة مريمَ

براعة الكناية في ﴿أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ﴾:

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ أي ما ذكرنا منَ القصص منَ الغيوب التي لم تعرفْها إلّا بالوحي[2]. والآيةُ بمنزلةِ التّذييلِ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/151.
(2) البَيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/17.

سِـيَرُ الأنبـياء مصابيحُ تُضيء دروبَ المؤمنين والعـاملين إلى قيامِ السّاعةِ

لما ذُكِر من مطلعِ قولِه: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا﴾ [آل عمران: 33] إلى هذه الآية، فكانت أنباءُ الغيبِ هنا كنايةً عن قصصِ الآنبياء وحالاتِ الاصطفاء التي ذكرتها الآياتُ الكريمةُ، و﴿مِنۡ﴾ للتّبعيضِ، فيكونُ ذلك الذي ورد في سورة آل عمرانَ هو جزءًا من أنباء الغيبِ التي سنُوحِيها إليك.

نكتة ذكر الوحي تهكُّمًا بمُنكريه:

قصصُ مَن كان قبلنا وردتْ في القـرآن دليـلًا عـلى الـوحـي وصدقِ الرّسالةِ المحمديّةِ

والمرادُ تقريرُ كونِه وحيًا على سبيل التّهكُّم بمُنكِريه، فإنَّ طريقَ معرفةِ الوقائعِ المُشاهدَةُ والسّماعُ، وعدمُ السّماع معلومٌ لا شُبهةَ فيه عندهم، فبقي أن يكونَ الاتهامُ باحتمالِ العيانِ ولا يظنُّ به عاقلٌ[1].

قولُه: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ﴾ نفيٌ للمشاهدةِ أو مُقتضى الظّاهر أن يقال: ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ﴾ وما سمعتَ هذا النّبأ من أحدٍ، ولا قرأتَه في كتاب؛ لأنّ هذا متوهّم منه، فاحتيج إلى رفع التّوهّم، لا المشاهدةِ، فإنها منتفيةٌ لاشكّ في انتفائها، فلا يحتاجُ إليه، فنُفيتِ المشاهدةُ، وتُركَ رفعُ التّوهّم؛ لأنّ المرادَ من نفي المُشاهدةِ: إثباتُ الحُجّة والاحتجاجِ على أهل الكتابِ بطريقِ التّقسيمِ الحاصرِ، ولاشكّ أنّ عدمَ السماعِ والقراءةِ محقّقٌ عند اليهودِ، وقد علموا ذلك علمًا يقينيًّا لاشكّ فيه، وإنّما كانوا يُنكرون الوحيَ، فأريدَ إثباتُ المطلوب بطريقٍ بُرهانيٍّ، فقيل: طريقُ العلم فيما أنبأكم به، إمّا السّماعُ والقراءةُ، وإمّا الوحيُ والإلهامُ، وإمّا الحضورُ والمشاهدةُ، فالأوّلان مَنفيان عندكم، بقيَ الثالثُ، فنُفي تهكّمًا بهم، وإنما خصَّ هذه دون الأولى للتّهكم؛ لأنه لو نفى الأولى لم يكنْ منَ التّهكُّم في شيءٍ، لمجالِ الوَهْمِ فيه دونَه[2].

(1) البَيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/17.
(2) الطيبي، حاشية الطيبي: 4/106.

سرّ الفصل والوصل في ذكرِ الأنباء:

أنباءُ الغَيبِ في القرآن الكريم واحدةٌ من ركائزِ الإعجازِ الغَيبيّ فيه

وقد ورد ذكرُ الأنباءِ منَ الغيبِ التي تأتي بالوَحي في موضعَيْن مُنفصلَيْن من كتاب الله تعالى، فقال: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾، و﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَاۖ﴾ [هود: 49]، و﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓاْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [يوسف: 102].

وصلَ في حالة تذكير الأنباء، وفصَلَ في حالة تأنيث الأنباء؛ لأنّ التّذكيَر دلّ على النبأ الواحدِ، وهو قصّةُ مريمَ، وكفالتِها، نُوصلُ فيها، وفي حالة التأنيث قصدَ بها مجموعةَ الأنباء، ممّا ذُكر في قصص الأنبياء ففصل فيها.

علّةُ تكرار قولِه: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾:

الجملة الأولى توحي بالتّعجيبِ من حالهم، والثانية نفيٌ تضمّن مدحًا

تصويرٌ لحالِ من كان ينظرُ إليهم في ذلك الموقفِ العظيم الذي يُباهي به اللهُ عبادَه كونَهم يتسابقون في فعل الخيراتِ. ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾ الأُولى تُوحي بالتّعجيبِ من حالهم، والثانية نفيٌ تضمّن مدحًا لأولئك الذين يختصمُون في فعل الخيرِ، ويتنازَعون عليه، فهي تكرارٌ وإطنابٌ لزيادةِ فائدة.

والجملةُ بمجموعِها تنبيهٌ على ما مضى وتمهيدٌ لما سيأتي، وجُعل هذا التّنبيهُ في نحوِ وسطِ هذا القصصِ ليكونَ السّامعُ على ذكرٍ ممّا مضى، ويُلقي السَّمعَ، وهو شهيدٌ لما بقيَ، وجعلَه بعد الافتتاح بقصّةِ مريمَ عليها السلام تنبيهًا على عِظم شأنِها، وأنّها المقصودةُ بالذّات للردّ على وفدِ نصارى نَجرانَ، وكأنه أتْبعَ التّنبيهَ ما كان في أوّل القصّةِ من اقتراعِهم بالأقلامِ واختصامِهم في كفالتِها لخفائِه على خواصِّ أهلِ الكتابِ[1].

(1) البِقاعِيّ، نظم الدّرَر: 2/87.

بَلاغةُ الكنايةِ في قولِه: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ﴾:

قولُه: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ﴾ إيماءٌ وكنايةٌ عن خُلُوِّ كُتبِهم عن بعضِ ذلك، وإلّا لقال: وما كنت تتلُو كتبَهم مثلَ: ﴿وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ﴾ [العنكبوت: 48] أي: إنك تُخبرُهم عن أحوالِهم كأنّك كنتَ لديهم[1]. ومثلُ ذلك قولُه: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلۡغَرۡبِيِّ إِذۡ قَضَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلۡأَمۡرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ٤٤﴾ [القصص: 44].. وفائدةُ هذه الكنايةِ بيانُ عِلمِ اللّه وحفظِه للأحداثِ، واللّحظاتِ الزّمنيّةِ التي حدث فيها هذا الفعلُ منهم أو هذا الإجراءُ، فاللّه تعالى يعلَمُه - سبحانه - كلَّه بدقائقِه، فهو رقيبُهم، وهو معهم إذ يُلقون أقلامَهم، فهو الشّاهدُ - سبحانه - وهو الخبيرُ بما حدث. والسّياقُ يحتمل حذفَ جُملةٍ؛ فمعنى قولِه: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ﴾؛ أي ما كنتَ لديهم إذْ كنّا نحن شهودًا عليهم؛ ففائدةُ الجملةِ إثباتُ شهادةِ اللّه عليهم.

فائدةُ هذه الكنايةِ بيانُ عِلمِ اللّه وحفظِه للأحداثِ، ولحظاتِ حدوثها

براعة الاستعارة في قولِه: ﴿أَقۡلَٰمَهُمۡ﴾:

قولُه: ﴿أَقۡلَٰمَهُمۡ﴾، قال الزّجّاج: الأقلامُ ها هنا: القِداحُ، تُسمّى أقلامًا لشبَهِها بها، على سبيل الاستعارةِ، إذ سُمّي السّهمُ قلمًا لأنه يُقلمُ، أي: يُبْرَى، وكلُّ ما قطعتَ منه شيئًا فقد قلمْتَه، ومنه القلمُ الذي يُكتب به، جعلوا عليها علاماتٍ يعرفون بها من يكفلُ مريمَ على جهة القُرعة[2]. وسمّاها بالأقلام لفائدةِ العلمِ والكتابةِ بها؛ إذ هي كأقلامِهم التي يكتبون بها التّوراةَ؛ التي يجدون فيها وصفَك أيُّها النّبيُّ ﷺ، ويجدون فيها بعضَ ما أُوحي إليك من أنباء الغيبِ، فناسبَ ذكرُها هاهنا.

وجه الاستعارة تشبيه القِداحِ بالأقلام؛ لفائدةِ العلمِ والكتابةِ بها

معنى الأقلامِ بين الحقيقةِ والمجازِ:

وفي الأقلام ثلاثُة أقوالٍ: أحدُها: أنّها التي يُكتبُ بها، فتكونُ هنا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/245.
(2) الطيبي، فتوح الغيب: 4/107.

على الحقيقةِ، قاله ابنُ عباس، وابنُ جبير، والسّدّي. والثاني: أنها العِصِيّ، فهي كالأقلام شبيهةٌ بها، فتكون استعارةً تصريحيّةً، كما بيّنّا آنفًا، قاله الرّبيع بنُ أنس. والثالث: أنها القِداحُ، فتكونُ الاقلامُ كنايةً عن القِداح لقرينة السّياق، وهو اختيارُ ابنِ قُتيبة، وكذلك قال الزّجّاج: هي قداحٌ جعلوا عليها علاماتٍ يعرفونَها على جهة القُرعة، ومنه القلمُ الذي يُكتب به؛ لأنه قُلِمَ مرّةً بعد مرّةٍ[1]. فقولُه: ﴿إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ﴾ ذُكر أنّها الأقلامُ التي يكتبون بها التّوراةَ كانوا يقترعون بها في المُشكلاتِ، تبرُّكًا بأن يكتبوا عليها أسماءَ المُقترعين أو أسماءَ الأشياء المُقترعِ عليها، وهذا المعنى على الحقيقة، والنّاسُ يَصيرون إلى القُرعة عند انعدام ما يرجّحُ الحقَّ، فكان أهلُ الجاهلية يستقسمون بالأزلام وجعلَ اليهودُ الاقتراعَ بالأقلام التي يَكتبون بها التّوراةَ في المدارس رجاءَ أن تكونَ بركتُها مُرشدةً إلى ما هو الخيرُ. هذا مع ما في مناسبةِ الأقلامِ للبِشارة بمن يعلّمُه الكتابَ، وليس هذا من شعارِ الإسلام، وليس لإعمال القُرعةِ في الإسلام إلا مواضعُ تمييزِ الحُقوق المتساويةِ من كلّ الجهاتِ، وتفصيلُه في الفقه[2].

وجه الحقيقة معنى الكتابة بها، ووجه المجاز كونها العِصِيّ والقِداح

وجه الكناية بالتّنازُع عنِ الحُبِّ والرّغبةِ في كَفَالَةِ مَريَمَ:

قولُه: ﴿إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ﴾؛ أي يرمُونَها ويطرحُونها للاقتراعِ على سبيل الكنايةِ أي: كنايةٌ عنِ القرعة[3]. وقولُه: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ وهذه كنايةٌ عنِ الحبّ والرّغبةِ، والتّدافعِ في كفالة مريمَ عليها السلام.

تنازعُهم على كفالةِ مريمَ، يُوحي بعلاماتٍ ظهرتْ على مريمَ كانت موجودةً عندهم في التّوراة تُبشّرُ بنبيّ يظهرُ في زمانهم

وأشارت الآية إلى أنهم تنازعوا في كفالةِ مريمَ حين ولدتْها أمُّها، إذ كانت يتيمةً كما تقدّمَ، فحصلَ من هذا الامتنانِ إعلامٌ بأنّ كفالة

(1) ابنُ الجوزيّ، زاد المسير: 1/282.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/245.
(3) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 3/179.

زَكَرِيَّا مريمَ كانت بعد الاستقْسَام، وفيه تنبيهٌ على تنافسِهم في كفالتِها[1]. فكان في هذه الآيةِ المُعترضةِ بين آيتَيْ نداءِ مريمَ أنّها استدْعتِ الماضي الذي يُوحي بخصوصيّةِ مريمَ عند اللّه، وعند الصّالحين منَ المؤمنين، الذين يكتبون التّوراةَ ويتعلّمُونها.. فناسبَ إثباتَ جهلِ اليهود، ورهبانِهم، بما يُوحيه اللّه تعالى إلى محمد ﷺ مع أنّهم أمّةٌ كان فيهم العلماءُ.. ومراجعُ العلمِ، فكانوا يُلقون أقلامَهم، التي هي علامةٌ على التّمسّك بكتابِ اللّه التّوراة، لكنّهم لا يعلمون كثيرًا ممّا نُوحيه إليك.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/245.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الخامس، سورة آل عمران من الآية 39 إلى الآية 140
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة آل عمران من الآية 39 إلى الآية 140 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 5 ، 800 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-57-6
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 5 : سورة آل عمران من الآية 39 إلى الآية 140.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-57-6
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-1170694 بتاريخ 2023/03/14م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»